37

الإنسان في شِعر
نازك الملائكة

محمد مصطفى هدارة
كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

مستلة من كتاب تذكاري

نازك الملائكة

دراسات في الشعر والشاعرة

بقلم: نخبة من أساتذة الجامعات

شركة الربيعان للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٥٤٠١ الكويت - الصفاة
تلفون ٢٤٤٩٩٩٨ - برقيا: ربيعبوك

الإنسان في شعر نازك الملائكة

محمد مصطفى هدارة
كلية الآداب
جامعة الاسكندرية

— ١ —

حين وقف « وليم فوكنر William Faulkner » الروائي الأمريكي يلقي خطابا بمناسبة الاحتفال بنيله جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٩ م قال : « إن شباب الكتّاب والشعراء نسوا مشكلات القلب الإنساني في صراعه مع نفسه ، وهذا الصراع وحده هو الذي يوحي بالكتابة القيّمة ، لأنه وحده الجدير بأن يكتب عنه ، والخليق بأن يكابد المرء العذاب من أجله . وإن من واجب الأديب ألا يجعل مجالا في فنه لشيء غير الحقائق العريقة ... حقائق القلب ، تلك الحقائق الكلية التي تصبح كل قصة بدونها عابرة وفاشلة إنها حقائق الحب والشرف والشفقة والكبرياء والتعاطف والتضحية ، فان لم يصل إلى شيء من ذلك فسيظل يكتب وقد حقت عليه اللعنة ، إذ لن يكتب عن الحب ، وإنما عن الشهوة ، وعن الهزائم التي لا يخسر فيها أحد شيئا ذا قيمة ، وعن انتصارات لا أمل فيها خالية من التعاطف والرحمة ، وستبقى أحزانه طافية على السطح لا تصل إلى العظام ، دون أن تترك أية ندوب . لن تصدر كتاباته عن القلب . وحتى يتعلم هذه الأشياء جميعا مرة أخرى ، فسوف يكتب عن الناس وكأنه يقف بينهم ليراقب نهاية الإنسان . أما أنا فأرفض أن تكون للإنسان نهاية ، ومن اليسير أن يقال إن الإنسان خالد لأنه سيبقى ، وإنه حينما تدق ساعة الفناء ويتلاشى صداها ... فإن صوتا واحدا سيظل باقيا ، ذلكم هو صوت الإنسان الذي لا يعتريه الفناء ، وخلوده راجع إلى أن له روحا قادرة على التعاطف والتضحية وقوة الاحتمال . وواجب الشاعر أو الكاتب أن يكتب

عن هذه الأشياء(١) » .

تذكرت كلمات « فوكنر » ــ التي تغوّرت في نفسي منذ قرأتها قبل سنوات ــ وأنا أعيش في عالم نازك الشعرى ، وهو عالم غني بالرؤى الفسيحة المدى ، وبالأحاسيس والمشاعر الإنسانية المرهفة الثّرة ، وأحاطت بي من كل ناحية نظرات زملائنا الباحثين في شعر نازك(٢) الذين عنَّواْ أنفسهم في تصنيفه ما بين رومانسية مفرطة ، ورومانسية رمزية ، ورومانسية رمزية سريالية ورومانسية واقعية . وقلت لنفسي بينما أحاورها : وماذا يكسب شعر الشاعر أو يخسر حين يصنفه النقاد في هذا الاتجاه الأدبي أو ذاك ، وماذا يكسب القاريء المتذوق أو يخسر حين يعلم أن شعر نازك ينتمي إلى هذه المدرسة الأدبية دون تلك . إن جمال الشعر وعظمته ليس من إبداع النقاد ، وما هم بقادرين على إخضاع تذوق القاريء وإحساسه بحيث يري ما يرون ويشعر بما يشعرون . ومهما اختلفت المذاهب الأدبية وارتبطت بفلسفات وأفكار : شرّقت أو غرّبت ، تسطّحت أو تعمقّت ، عاشت في النور ، أو تغوّرت في أسداف الرؤى الغائمة والرموز المبهمة ، فسيظل الإنسان مدار الشعر ، مثلما كان منذ أقدم العصور فالحياة التي صورها « هوميروس » في الملاحم الوثنية اليونانية تعكس لنا الوجود الإنساني كما يقول راندال بحق(٣) والإنسان هو سر أسرار

---

(١) انظر : الحرية والكرامة الإنسانية . مجموعة أشرف على ترجمتها محمد زكي عبد القادر ــ نشر مؤسسة الخانجي بالقاهرة ومكتبة اليقظة العربية بدمشق ــ ١٩٥٩ م .

(٢) بين يدي عدد كبير من هذه الدراسات ليس هنا مجال لحصرها وأذكر منها على سبيل المثال : نازك الملائكة الموجة القلقة لماجد أحمد السامرائي ــ الشعر العراقي الحديث للدكتور جلال الخياط ــ مقال في الشعر العراقي الحديث لعبد الجبار داود البصري ــ الشعر العراقي الحديث وروح العصر لجليل كمال الدين ــ شجر الغابة الحجري لطراد الكبيسي ــ الشعر العربي المعاصر ــ قضاياه وظواهره الفنية للدكتور عز الدين اسماعيل الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر للدكتور عبد القادر القط ــ الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر للدكتور مفيد قمير .

(٣) تكوين العقل الحديث The Making of the modern mind ــ جون هرمان راندال Herman Randal نشر دار الثقافة ــ بيروت ــ ١٩٥٥ : ١٨٥ .

الكون ، وفيه تكمن المعاني المرتبطة بحقائق الوجود ، وما أصدق « آسار صاحبي » الأديب الهندي حين يقول :

إن أحدا لا يستطيع أن يعرف مدى عمق عظمة
الإنسان ، وإن معرفة حقيقة الإنسان تفوق
حدود طاقتنا العقلية ، فالإنسان يستطيع أن
يطير إلى العلياء خارج حدود السماء ، ولكن
عظمته ما زالت سرا غير معروف(٤)

والإنسان يمتد في الزمن مثلما يمتد في الفراغ إلى ما وراء حدود جسمه ، وحدوده الزمنية ليست أكثر دقة ولا ثباتا من حدوده المكانية ، فهو مرتبط بالماضي والمستقبل ، بالرغم من أن ذاته لا تمتد خارج الحاضر(٥) .

ويصدق قول « ميخائيل نعيمة » : وليس كالأدب مسرحا يظهر عليه الإنسان بكل مظاهره الروحية والجسدية ، ففي الأدب يرى نفسه ممثلا ومشاهدا في وقت واحد ، هنالك يشهد نفسه في الأقماط حتى الأكفان ، وهنالك يمثل أدواره المتلونة بلون الساعات والأيام ، وهنالك يسمع نبضات قلبه لكن في نبضات سواه ، ويلمس أشواق روحه في أشواق روح غيره ، يشعر بأوجاع جسمه في أوجاع جسم إنسان مثله(٦) » .

فماذا يمكن أن يكون موضوعا للشعر أعظم من الإنسان : بوجوده وعدمه ، بآماله ويأسه ، بفرحه وحزنه ، بحبه وبغضه ، بعقله وشعوره ، بكبريائه وذلته ، بسموه وضعته ، بل بكل عالمه الظاهر والمجهول ، أليس هو

---

(٤) انظر : الحرية والكرامة الإنسانية : ٢٠٢ .

(٥) انظر : الإنسان ذلك المجهول ــ الكسيس كارل ــ ترجمة شفيق أسعد فريد ــ نشر مؤسسة المعارف .

(٦) انظر : الغربال : ٥٦ . دار صادر ــ بيروت ــ الطبعة السادسة .

(الجامع لجميع العوالم الإلهٰية والكونية الكلية والجزئية) ، ألا يسمىّ العالم (الإنسان الكبير)(٧) .

وليس من شك في أن رؤية كل شاعر للإنسان تختلف عن غيره من الشعراء ، إذ يستحيل على أي شاعر أن يكتب عن كل جوانب الإنسان ، فهو لا يرى فيه إلا ما يستشعره في نفسه من أحاسيس وعواطف وأفكار ورؤي ، بحكم تكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي والمذهبي ، بل الفطري أيضا . وسوف أحاول في هذه الدراسة أن أستكشف الإنسان في العالم الشعري لنازك الملائكة ، وهذا الإنسان ليس بالضرورة الشاعرة نفسها ، كما أنه ليس إنسانا خاصا من خلقها لا يوجد إلا في عالمها ، كما يقرر بعض الدارسين لشعرها ، وما أصدقها حين ترد عليهم بقولها :

يقولون شاعرة في السحاب تحلّق خلف سراب النجوم
أنانيّة لا تحس الوجود وإن صرعته جبال الغموم
خيالية تمقت الكائنات وتخلق عالمها في الغيوم
أنانية وأحب البشر
خيالية وحياتي تسير
خريفية وأناجي الزهر
وعاطفتي لهب من شعور

.....

أحب الحياة بقلبي العميق وأمزج واقعها بالخيال

.....

وأعشق ذاتي ففي عمقها خيال وجود عميق الظلال(٨)

---

(٧) انظر : التعريفات للجرجاني : ٢٩ ، ٣٠ .

(٨) قصيدة « تهم » ــ ديوان شظايا ورماد ــ ديوان نازك ١ : ١٧٨ ــ ١٨١ ــ دار العودة بيروت .

نازك والنفس الإنسانية : — ٢ —

كانت النفس موضع خلاف في الفكر الإسلامي بين المتكلمين والمتصوفة ، فالذين اعتمدوا على المذهب المادي أنكروا النفس ، ومنهم من قال إنها جسم أو عرض لجسم ، ومنهم من قال إنها مزاج وتأليف بين الطبائع . أما الذين نزعوا منزعا روحيا فقد قالوا إن النفس ليست جسما ولا عرضا لجسم ، ولا مكان لها في الحقيقة ، وليس لها طول ولا عرض ، ولا تماس شيئا ، ولا يماسها شيء ، ولا يجوز عليها الحركة والسكون ، والألوان والطعم ، ولكن يجوز عليها العلم والقدرة ، والحياة والإرادة وأنها تحرك البدن بإرادتها ولا يماسها .

أما النفس أو الروح عند المتصوفة فهى جوهر مادى من طبيعة إلهية ، وهى لذلك تنزع إلى العودة إلى مبدئها يدفعها الشوق والحب(٩) .

وقد ذكر « ابن سينا « أن كل موجود طبيعي مكون من مادة وصورة ، وبما أن الإنسان موجود طبيعي فهو إذن مكون من مادة وصورة : المادة هي البدن ، والصورة هي النفس ، ولذلك يرى أن النفس غير مادية(١٠) .

وهذا الخلاف بين الجسد والروح ، أو عالم المحسوسات وعالم المعقولات كان مبدأ أساسيا في الأفلاطونية ، وقد ثبت أن الأول دائم التبدل ، فهو متحول زائل ، الثاني ثابت أزلي خالد ، ولهذا لا تكتسب الحياة الإنسانية معنى إلا بمقدار ما يرتفع العقل فوق عالم الحس ويتصل بعالم المثل ، فالإنسان يستطيع أن يخلد نفسه بالإرتفاع إلى خير الأشياء الأزلية . وقد تأثر « أفلاطون » بنزعة الزهد الشرقية الأصل ، فحصر غاية الإنسان في محاورته الجميلة الفيدو في البحث عن الموت : موت الجسد وخلود النفس(١١) .

---

(٩) انظر في ذلك : مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للفخر الرازي ، الفصل في الملل والنحل لابن حزم .

(١٠) انظر : النجاة لابن سينا .

(١١) انظر : تكوين العقل الحديث : ٨٩ ، ٩٠ .

وواضح أن النفس عند نازك هي النفس الفلسفية التي تحرك البدن بإرادتها ، وهي في رأيها تحمل الشر دائما والبغضاء وتتأبّى على التهذيب والسمو ، تقول :

وهي النفس تحمل الشر والبغضاء مـــاذا يفيـــدهـا التهذيـــــب(١٢)

بل إن الإنسان ذو نسب في الشر عريق ، تقول :

كيف ينجو الوجود إن كان في الإنسان عرق من الشرور عريق(١٣)

وما ذاك إلّا لأنه طبع فيه مفطور عليه :

فاحتدام الشر طبـــع الآدمـــــيّ(١٤)

وما ثورتها على العالم إلا :

على عالم مغـــرق فـــي الشـــرور(١٥)

ولا ينفع الإنسان أي دواء يبرئه وآثامه ، لأن الداء كامن في روحه ، تقول :

ليس يشفيهم من الحزن واليأس دواء فالداء في الأرواح(١٦)

وليس في الإمكان قتل الشيطان في النفس وإحياء الملاك ، تقول :

لن تقتلي الشيطان في الإنسان أو تحيى الملاك(١٧)

وتعود نازك بنسبة الشر في النفس الإنسانية إلى خطيئة آدم وحواء التي تلح عليها في أكثر من قصيدة ، وخاصة مأساة الحياة وأغنية للإنسان ، فقد نجح الشيطان في قهر الإنسان ، وغرس فيه نزعة الشر بخضوعه لإرادته ، تقول :

---

(١٢) قصيدة أغنية للإنسان (٢) : ١ : ٣٨٣ .

(١٣) نفســه .

(١٤) قصيدة في وادي العيد ــ ديوان عاشقة الليل ــ ديوان نازك ١ : ٤٨٢ .

(١٥) قصيدة صراع ــ ديوان شظايا ورماد ــ ديوان نازك ٢ : ٥١ .

(١٦) قصيدة مأساة الحياة ــ ديوان نازك ١ : ٨٧ .

(١٧) قصدية سياط وأصداء ــ ديوان عاشقة الليل ــ ديوان نازك ١ : ٥١٨ .

ليت حواء لم تذق ثمر الدوحـــــة ليت الشيطـــــان لم يتجنـــــا
علمتنـــا ثمارهـــا فكـــــرة الشر فكـان الحزن العميـق العـــاصر(١٨)

فلا مناص اذن من أن تكون الحياة الإنسانية منبع الشر والشقاء :

وتـرون الحيـــاة منبـــع شـــــر ليس منه منجى وليـل شقـاء(١٩)

ونازك بهذه الرؤية ترفض فكرة الاستعلاء على الشر التي حاول « جون ملتون John Milton أن يفرضها على آدم وحواء في الفردوس المفقود Paradise Lost » كما فرضها على المسيح أيضا في « الفردوس المسترد Paradise Regeined » حين أغرى الشيطان المسيح بمائدة شهية ، بعد أن امتنع المسيح عن الطعام أربعين يوما ، وهو هائم على وجهه في القفار ، ولكن المسيح لا يستجيب للشيطان ويقهره ، فهي تؤمن بالضعف الإنساني إلى أبعد مدى فتقول :

وعيون الأقدار يضحكن منـــــى هازئات بضعفى الآدمـــــى(٢٠)

وتتخذ من فتنة تاييس رمزا لهذا الضعف الإنساني الذي لا يستطيع أن يصمد للإغواء والشر ، تقول :

اسم تاييس لم يزل يملأ الكـون فأين الذي أضلت خطـاه(٢١)

ثم تقول للرهبان الذين يظنون في أنفسهم قهر الشر والاستعلاء على الشيطان وفتنته :

عبثا تهربون من مغريـات العيش كم في الوجـود من تاييس(٢٢)

ويبدو الإنسان في عالم نازك الشعري أكثر خضوعا لغرائزه وعواطفه ، ويحتل الحب عنده مساحة هائلة من نفسه ، ولكنه ـــ بسبب شقائه الأزلي ـــ

---

(١٨) قصيدة مأساة الحياة ـــ ديوان نازك ١ : ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(١٩) نفسه ١ : ٢٠٧ .

(٢٠) نفسه ١ : ١٥٣ .

(٢١) نفسه ١ : ٨٣ .

(٢٢) نفسه .

حب حزين منهزم ، لا يأتيه بالسعادة التي يحلم بها ، بل ربما شارك في إحساسه بالشقاء والعبودية :

ذهب الأمس بأوهـام فؤادي ومحاهـا
فإذا قلبي عبـد ولقـد كان إلهـا(٢٣)

كما عمّق إحساسه بضياع الماضي في غير طائل إلا من العذاب والقهر :

ومـرت حيـاتي مرت سـدى ولا شيء يطفيء نار الحنيـن
سدى قد عبرت صحاري الوجود سدى قد جررت قيود السنين(٢٤)

وهو في معظم الأحيان لا يدع له أملا في السعادة التي قد يحملها الغد المنتظر ، هذا الغد الذي يأتي زاحفا عاجزا :

ورأينـا الغـد المنتظـر ساحبـا نصفـه المشلـول
ساحبـا نصفـه المحتقـر نصفـه الجامـد المملـول(٢٥)

وحين تغيم الرؤى أمام الإنسان في حبه لا يعرف أمسه من يومه أو غده :

هل مر بنا زمـن أم خضنـا اللازمنـا(٢٦)

بل تتجرد كل الأشياء من مظهرها وحجمها :

وغبار السنين جر على الأشواق ستر اللالون واللاكيان(٢٧)

وبرغم الألم الذي يسببه الحب للإنسان لا يجد مجالا للفرار منه فهو يحاصره ولا أظنه إلا سعيدا بهذا الحصار :

لا مهـرب مـن جـرح قـد مـر علـى قلبـي
جرح يصرخ كالجـوع البـائس في قلبـي(٢٨)

---

(٢٣) قصيدة العودة إلى المعبد ـــ ديوان عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٦١٦ .

(٢٤) قصيدة يوتوبيا الضائعة ـــ ديوان شظايا ورماد ـــ ديوان نازك ٢ : ٤٥ .

(٢٥) قصيدة تواريخ قديمة وجديدة ـــ ديوان شظايا ورماد ـــ ديوان نازك ٢ : ٤٩ .

(٢٦) قصيدة نهاية السلم ـــ ديوان شظايا ورماد ـــ ديوان نازك ٢ : ٢٦٦ .

(٢٧) قصيدة حصاد المصادفات ـــ ديوان قرارة الموجة ـــ ديوان نازك ٢ : ٢٦٦ .

(٢٨) قصيدة الجرح الغاضب ـــ ديوان شظايا ورماد ـــ ديوان نازك ٢ : ٧٢ .

والإنسان في غمرة الصراع بين قلبه وعقله ، وجسده وروحه يحس الاضطراب العنيف يزلزل كيانه :

لقبوهـا الحيـاة وهـي اضطـراب أبـديّ ولهفـة لا تَقَـرّ
وامتـداد للانهايـة لا يبـدأ لا ينتهي فأيـن المفـر[٢٩]

ويحس الخواء يعتصر نفسه :

الفراغ الفـراغ يقتلنـي أواه لو كـان للوجود وجـود[٣٠]

ويحس الخوف يتغلغل في كيانه ، ويتمنى أن يجد من ينقذه من ظلمة الخوف المنتشرة في أعماقه :

في المعبر سعـلاة ترمـق طيفـي بفتـور
ووراء المفتـرق المتشعب بعض قبـور
خـذ بيدي ولنترك هـذا الأفـق المهجـور
لا تتركني روحـا صارخـة في الديجـور[٣١]

وما يطمئن إليه الإنسان قد يصبح في لحظات مصدر خوف ورهبة ، فها هي ذي عاشقة الليل يغلبها في لحظة ضعف الخوف منه :

الليـل فيـه مخاوف ووساوس لا تخمـد
أبـدا يزلزلـه صراخ غامض وتنهـد [٣٢]

ويقضي الإنسان عمره في الانتظار : انتظار كل شيء ، وانتظار اللاشيء : ... وما أطول الإنسان على الخائفين[٣٣] . ويظل مترقبا يعتصره القلق والضجر والملال :

أتصـور الضجـر المريـر
في أنفـس ملت وأتعبـهـا الصفيـر

---

(٢٩) قصيدة وجوه ومرايا ـــ ديوان شظايا ورماد ـــ ديوان نازك ٢ : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣٠) نفسه ٢ : ١٦٢ .

(٣١) قصيدة خائفة ـــ ديوان قراره الموجة ـــ ديوان نازك ٢ : ٤٠٠ .

(٣٢) قصيدة مدينة الحب ـــ ديوان عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٥٥٩ .

(٣٣) قصيدة أول الطريق ـــ ديوان قرارة الموجة ـــ ديوان نازك ٢ : ٢٢٨ .

هي والحقائـــب فـــي انتظـــار[٣٤]

وهذا الصفير ليس صفير القطار ، ولكنه ضجيج الحياة ونذير الشقاء ، وهذه الحقائب ليست أمتعة المسافرين ، بل رغبات الإنسان وآماله المتحفزة في ذاته ، حبيسة في انتظار من يفتح لها . والأمل هو ما يتعلل به الإنسان لتهدئة مخاوفه والقضاء على وساوسه ، والتغلب على إحساسه بالألم والشقاء (ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل) ، فإذا تحقق زال عنه كل جمال ، ولم يعد شيئا مرجّوا ، ولا بد أن يعيش الإنسان على أمل جديد :

ولو جئت يومـا ــ وما زلت أوثر ألا تجيء ــ
لجف عبير الفراغ الملون في ذكرياتـــي
وقصّ جناح التخيـــل واكتأبت أغنياتـــي
وأمسكت في راحتّى حطـام رجائي البريء
وأدركـــت أنـــى أحبـــك حلمـــا
وما دمـــت قـــد جئت لحمـــا وعظمـــا
سأحلم بالزائر المستحيـل الـذي لم يجيء[٣٥]

ــ ٣ ــ

الإنسان والحياة :

الحياة الإنسانية سر هذا الوجود الذي يعمر الكون ، وهو يبقى ما بقيت ، ويفنى عندما تتلاشى . هذه الحياة تحسها نازك أنها مأساة ، ويترسب هذا الإحساس في كيانها نتيجة منطقية للخطيئة الأولى للإنسان ــ فغواية الشيطان لآدم وحواء ، وانهيار مقاومتها لشره ، ثم طردهما من الجنة ــ أو الخلد الذي لا يفنى ــ عقوبة لهما ، نسج ذلك كله خيوط المأساة التي يعيشها الإنسان في هذه الأرض منبوذا ، شريرا ، فانيا ، جاهلا حقائق الكون ، بعيدا عن السعادة . وبهذا الإحساس القوى بمعنى الحياة المترسب في أعماق نازك كتبت

---

(٣٤) قصيدة مر القطار ــ ديوان شظايا ورماد ــ ديوان نازك ٢ : ٦١ .

(٣٥) قصيدة الزائر الذي لم يجيء ــ ديوان قرارة الموجة ــ ديوان نازك ٢ : ٣٢٩ .

مطولتها مأساة الحياة وهي في ريّق العمر ما بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين ، وكان دافعها إلى ذلك كما تقول :

« تشاؤمي المطلق وشعوري بأن الحياة كلها ألم وايهام وتعقيد »(٣٦) .

كذلك كانت مؤمنة بقول « شوبنهاور » : « لست أدري لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل على هزيمة وموت ، لست أدري لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التي تثور حول لا شيء ، حتام نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي ، متى نتذرع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حب الحياة أكذوبة »(٣٧) .

وربما خفت حدة التشاؤم عندما أعادت نازك صياغة هذه المطولة وهي في السابعة والعشرين من عمرها ، ثم وهي في الثانية والأربعين ، وجعلت عنوانها في التجربتين الأخيرتين (أغنية للإنسان) ولكن الحقيقة إن الأفكار الرئيسية بالنسبة لموقف الإنسان من الحياة ظلت كما هي دون تغيير . فالأغنية التي تنشدها نازك للإنسان ليست إلا نشيجا باكيا ، ومحاولة للتعزي عن مأساة حياته ، كما أحستها في تجربتها الأولى ، تقول نازك :

حدثي القلب أنت أيتها المأساة يا من قد سُمّيت بالحياة(٣٨)

ونراها في قمة تشاؤمها في هذه التجربة الأولى لا ترى الوجود غير ظلام لا يشرق فيه صباح ، وكأن الإنسان عندما هبط إلى الأرض في صورة آدم حقت عليه لعنة أبدية بأن يعيش على الأرض في ظلام تكتنفه الهموم والكآبة ، يقتات الحزن ويشرب الدموع :

ـ عبثا تحلمين شاعرتي ما من صباح لليل هذا الوجود(٣٩)

---

(٣٦) ديوان نازك ١ : ٦ .

(٣٧) نفسه .

(٣٨) قصيدة مأساة الحياة ـ ديوان نازك ١ : ٢٥ .

(٣٩) نفسه ١ : ٢١ .

ـــ ليس حولى إلا دياجير كون ليس يفنى بكاؤه وأساه(٤٠)
ـــ حيث تبقى الغيوم في الجو رمزا لحياة سوادها ليس يفنى(٤١)
ـــ ليس إلا عمر يمر حزينا يتهاوى كآبة وسكونا(٤٢)
ـــ نحن نحيا في عالم كله دمع وعمر يفيض يأسا وحزنا(٤٣)
ـــ قد عبرنا نهر الحياة حيارى في ظلام الفصول والسنوات
ـــ وثبتنا على أسانا خريفا وربيعا فما جمال الحياة (٤٤)
ـــ ليس يلقى الحياة إلاّ حزين القلب حيران في هموم الحياة(٤٥)

ونراها في (عاشقة الليل) تبث هذه الأحاسيس نفسها فتقول :

رأيت الحياة كهذا المساء
ظلام ووحشة جو كئيب
ويحلم أبناؤها بالضياء
وهم تحت ليل عميق رهيب(٤٦)

فالحياة الإنسانية كما تراها نازك شقاء دائم لامكان فيه للأمل بسبب الخطيئة الأولى للإنسان وهبوطه من جنة الخلد إلى هذه الأرض ، أو الواقع الكئيب البائس :

عالم كل من على وجهه يشقى ويقضي الأيام حزنا ويأسا(٤٧)

وتقول في (عاشقة الليل) :

---

(٤٠) نفسه ١ : ٧١ .
(٤١) نفسه ١ : ٧٤ .
(٤٢) نفسه ١ : ٨٢ .
(٤٣) نفسه ١ : ١٦١ .
(٤٤) نفسه ١ : ١٦٢ .
(٤٥) نفسه ١ : ١١٤ .
(٤٦) قصيدة خواطر مسائية ـــ عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٥٦٨ .
(٤٧) قصيدة مأساة الحياة ـــ ديوان نازك ١ : ٧٢ .

عبثا فالحياة سُنّتها الحزن وحكم الآهات والدمع جار(٤٨)

وتغرق في احساسها بشر الحياة وبشاعتها فتنكر وجود تعادلية فيها بين الخير والشر ، فالإنسان :

كلما ذاق قطرة من نعيم أعقبتها من الأسى ألف قطره(٤٩)

بل تصل في بعض الأحيان إلى نفى الخير نفيا تاما عن حياة الإنسان ، وباعثها في ذلك كما واضح في البيت الثاني ـــ طرد ادم وحواء من الجنة وهبوطهما إلى الأرض ، تقول :

هي هذي الحياة زراعة الأشواك لا الزهر ، والدجى لا الضياء
هي نبع الآثام تستلهم الشر وتحيا في الأرض لا في السماء(٥٠)

وترى أن الإنسان يجد في الشر عزاء شقائه ، فالشر تعويض عن عذاب الإنسان في الأرض :

لست ألقي حولي -سوى عالم يشقى ويلقى عزاءه في الشرور(٥١)

والألم عند نازك عقوبة طبيعية يتحملها الإنسان تكفيرا عن خطيئته الأولى التي أهبطته من السماء إلى الأرض ، فهو جزء لا ينفصم من نسيج الوجود الإنساني ، حتى ليمكن القول بأن الحياة هي الألم ، والألم الحياة ، تقول نازك في قصيدتها (مأساة الحياة) :

كل ما في الوجود يؤلمني الآن وهذي الحياة تجرح نفسي(٥٢)

وتقول في (أغنية للإنسان) :

---

(٤٨) قصيدة الفيضان ـــ عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٦٤٨ .

(٤٩) قصيدة مأساة الحياة ـــ ديوان نازك ١ : ٤٢ .

(٥٠) نفسه ١ : ٣٧ وتؤكد المعنى في البيتين بالصياغة نفسها في الأغنية الثانية للإنسان انظر ديوانها ١ : ٣٧١ .

(٥١) نفسه ١ : ٢١٣ .

(٥٢) نفسه ١ : ٣٤ .

كل ما في الوجود يجرحني الآن ولون الحياة يطعن نفسي(٥٣)

وليس هناك مفر للإنسان من آلامه فهو محاصر بها ما دام الألم يعني الحياة :

ضاق بي العالم الفسيح فيا للهول أين المفر من آلامي(٥٤)

وهي تتساءل في إنكار عن الذي ارتكبه آدم بحيث حق العذاب على البشر جميعا :

أي ذنب جناه آدم حتى نتلقى العذاب نحن جميعا(٥٥)

ولكنها موقنة باستحقاق هذا العذاب لإطاعة الإنسان الشر المتمثل في الشيطان وهبوطه من الخلد وعالم المثل والخير والفضيلة ، إلى أرض الواقع التي تتجسد فيها هزيمة الإنسان وسقوطه في حمأة الشر والرذيلة .

الإنسان والقدر : — ٤ —

إذا كان الوجود الإنساني مأساة في نظر نازك بسبب هبوط الإنسان إلى الأرض ، أو العالم السفلي المظلم الكئيب ، وإذا كان هذا الوجود عقوبة عن الخطيئة الأولى التي تمت بغواية الشيطان وزرعت الشر الدائم في الإنسان كما رأينا ، فلا مناص من الإقرار بأن الإنسان في هذا الوجود لعبة في يد القدر يتلهى بها ، وسجين في قيود الزمن ، لا أمل له في الفكاك والانطلاق من الأسر ، تقول نازك :

عبثا تسألين لن يُكشف السر ولن تنعمي بفك القيود(٥٦)

بل هذا القيد تحسه أيضا في قلبها يحول بينها وبين حرية الشعور :

هو سجن الحياة قد كبّلت أقياده السود كل قلب رهيف(٥٧)

---

(٥٣) قصيدة أغنية للإنسان (١) — ديوان نازك ١ : ٢٥٧ .

(٥٤) قصيدة مأساة الحياة — ديوان نازك ١ : ٢١٣ .

(٥٥) قصيدة أغنية للإنسان (١) ديوان نازك ١ : ٢٦٠ .

(٥٦) قصيدة مأساة الحياة — ديوان نازك ١ : ٢١ وكذلك قصيدة أغنية للإنسان ١ : ٣٥٥ .

(٥٧) نفسه ١ : ١٨٢ .

ولسنا جميعا غير أسرى أذلاء لاندري ماذا يراد بنا :

نحـن أســرى يقودنــا القــدر الأعمــى إلــى ليــل عالــم مجهــول
ليس منـا من يستطيـع فكاكـا ليس منا غير الأسير الذليــل(٥٨)

بل نحن لعبة بين مخالب القدر ، هذا الجبار العاتي المسيطر :

أيها الأشقيـــاء نحن جميعـــا لعبــة في مخالب الأقـــدار(٥٩)

وحياة الإنسان في أسرها تبدو سفينة تائهة في لجة البحر :

ألـقت بها الأقــدار في لجج المنايــا والشقـــاء

.....

سارت وما تدري إلى أين المصير ومـا الطريـق(٦٠)

وكل ما في الوجود يمكن أن يكون قيدا يغل الإنسان ، فالنفس والجسد والزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل ، كلها يمكن أن تكون قيودا تثقل الإنسان ، تقول نازك :

وكالآخريــن أعــيش أجــر قيــود المكـــان
وأحمل فوق جبينـــي عبء الدجـــى والدخـــان
لعينيك أرشف كأس الغيـــوم
وأعــبر ليــلا جفتــه النجــوم
وأطــوي الزمـــان
مكبّلــة بالأسى الآدمــي وقيــد الجســـد(٦١)

وتقول أيضا :

أتيناك نحن عبيد الزمان

---

(٥٨) نفسه ١ : ٥٧ ، والبيت الأول نفسه في قصيدة أغنية للإنسان (٢) ١ : ٣٨٨ .

(٥٩) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ـــ ديوان نازك ١ : ٣٩٤ .

(٦٠) قصيدة السفينة التائهة ـــ عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٦٠٢ .

(٦١) قصيدة أغنية لشمس الشتاء ـــ قرارة الموجة ـــ ديوان نازك ٢ : ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

وأسراه نحن الذين عيونهم لا تموت
أتينا نجر الهوان(٦٢)

وهي تفرق تفرقة واضحة بين حياة الحرية في جنة الخلد العلوية ، وحياة العبودية والأسر في الأرض الترابية الفانية حين تقول عن آدم :

كيف ينسى الأمس الطليق ليهنا بحياة القيود والأرسان
أين ذاك الحس الرهيف هنا سجن بليد مغلف الجدران(٦٣)

وحين ترى نازك غريقا تحس تفاهة الإنسان في أيدي القدر وشقاءه السرمدي في الأرض فتقول :

ما الذي تصطاد في بحر الزمن
وغدا يصطادك الدهر العتى
نحن يا صياد أبناء الشجن
حفّ محيانا الشقاء الأبدي(٦٤)

وما دام الإنسان مقيدا أسيرا فلا مفر إذن من أن يفرض عليه من خارج نفسه وإرادته كل ما يفرض على الأسير الذليل :

ـ ولتسر هذه الحياة كما ترجو المقادير والأسى والظلام
وليظل الأحياء في التيه يشقون وتقسو عليهم الأيام(٦٥)
ـ هكذا ما يريده القدر المحتوم لا ما تريده آمالي
سيّرتني الحياة أين ترى مرسى سفيني وعند أي رمال(٦٦)
ـ هكذا شاءت المقادير للعالم إثم ونقمة وحروب(٦٧)

---

(٦٢) قصيدة صلاة الأشباح ـ قرارة الموجة ـ ديوان نازك ٢ : ٣٩٥ .
(٦٣) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ـ ديوان نازك ١ : ٣٧٣ .
(٦٤) قصيدة مرثية غريق ـ عاشقة الليل ـ ديوان نازك ١ : ٥١١ .
(٦٥) قصيدة مأساة الحياة ـ ديوان نازك ١ : ٢٣٢ .
(٦٦) نفسه ١ : ٢٨ والبيتان نفسهما في أغنية للإنسان (٢) ـ الديوان ١ : ٣٦٢ .
(٦٧) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ـ الديوان ١ : ٣٨٣ .

ـــ اتركي الزورق الكليل تسيّره أكف الأقدار كيف تشاء(٦٨)
ـــ ولتسر هذه الحياة كما ترجو المقادير والأسى والظلام(٦٩)
ـــ سر بنا حيثما يريد لنا المجهول سر في هذا الوجود الحزين(٧٠)

بل نراها تحس التواء السبيل أمام الإنسان وانبهام الرؤي بحيث يعسر عليه الانفلات أو الهروب ، وهي ترى في القدر الأفعوان الذي يحيط بالإنسان يعتصره ويقضي عليه ، تقول :

أين أمشي ؟ مللت الدروب
وسئمت المروج
والعدو الخفي اللجوج
لم يزل يقتفي خطواتي فأين الهروب ؟
.....
من قيود التذكر .. لن أنشد الانفلات
من قيودي وأي انفلات
وعدوى المخيف
مقلتاه تمج الخريف
.....
أين أين المفر
من عدوى العنيد
وهو مثل القدر
سرمدى خفي أبيد
سرمـــــدي أبيـــــد(٧١)

---

(٦٨) قصيدة مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٢٢ ونفسه في أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٥٦ .
(٦٩) قصيدة مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٢٣٢ .
(٧٠) قصيدة الفيضان ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٦٥٠ .
(٧١) قصيدة الأفعوان ـــ شظايا ورماد ـــ الديوان ٢ : ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ .

وخضوع الإنسان للقدر ووقوعه في أسره يعنى شقاءه الدائم الذي سلمت به نازك نتيجة الخطيئة الأولى كما أسلفناه ، فالشقاء مكتوب على الإنسان وكذلك الشر عقوبة له ، وكأن فقدان آدم جنة الخلد لم يكن عقوبة كافية :

وليكـن آدم جني حسبـه فقدان فردوسه الجميـل عقابـا
أولم يكـف أنـه هبـط الأرض ليسقـى آلامهـا أكوابـا
أولم يكـف أنـه هبـط الدنيـا طريـدا من خلـده الفينـان
أولم يكـف أنـه عرف الشر وقـد كان طاهـرا في الجنـان(٧٢)

ولكن كل ذلك لا يعفيه من الشقاء الذي أصبح سمة للأحياء :

لن تذوقوا شهد السعادة ما دمتم أنـاسيّ من تراب ومـاء
كتبت هذه الطبيعة للأحياء أن يكرعوا كؤوس الشقـاء(٧٣)

وهي لا ترى في هذا الوجود غير الشقاء ملازما للإنسان :

عجبـا أيـن ما يقولـــون ؟ مالى لا أرى غير حيرة الأشقيـــاء(٧٤)

فالشقاء والإنسان مرتبطان منذ النشأة حتى الفناء :

وهبطنـا هذا الوجـــود لنشقـــي منذ فجر الحياة حتى المغيب(٧٥)

وتعجب نازك للذين ينتقدون تشاؤمها وكآبتها الدائمة ، والحاحها على رسم صورة الشقاء في الكون ، وترى أن هؤلاء الناقدين يجهلون سر الوجود الإنساني في الأرض ، أو مأساة الحياة كما أسمتها من قبل :

قد وصفـت الشقـاء في شعري الباكـــي وصـــورت أنفـس الأشقيـــاء
وشلوت الحيـــاة لحنـــا كئيبـــا ليس في ليلـــه شعـــاع صيـــاء
فأثـارت كآبتـي عجب النـــاس وحـــاروا في سرهـــا المجهـــول
ما دروا أنني أنوح على مأساتهـــــم في ظلامهـــا المسدول(٧٦)

---

(٧٢) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ــ الديوان ١ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(٧٣) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٨٤ .

(٧٤) نفسه ١ : ٨٢ .

(٧٥) نفسه ١ : ٢٠٠ .

(٧٦) نفسه ١ : ١٥٦ .

إن القدر الذي هبط بالإنسان إلى الأرض كتب عليه لعنة الشقاء الأبدية ، فما ان تسترسل نازك في أحلامها الوردية حتى يبدو لها الزمن في النهر المتدفق ـــ الذي يمثل الحياة بعنفوانها ـــ سمكة ميتة (إنذار أسى ودليل فراق) ، وظلت هذه السمكة تكبر وتتمدد ـــ وكأن الشر يبدو ميتا ولكنه لا يموت ـــ حتى سدت عليها الطريق إلى الأمل :

وزعانفهـــا الســـود الشوهـــاء
سدت في وجهينا الأرجـــاء
وأراقت في الجو الـــــوضاء
سحبا سوداء ولون محـــاق(٧٧)

وهي في هذا الموقف لا تمثل ذاتية خاصة ، فالشقاء سمة إنسانية مرتبطة بالوجود نفسه ، ونازك تعبر عن هذه الرابطة العضوية بين البشرية والشقاء في قصيدتها (لنكن أصدقاء) فهي تقيم ناديا للأشقاء ينضوي إليه كل بشري في أرجاء الأرض واقع تحت سلطان القدر ، تقول :

لنكن أصدقاء
في متاهات هذا الوجود الكئيب
حيث يمشي الدمار ويحيا الفناء
في زوايا الليالي البطاء
حيث صوت الضحايا الرهيب
هازئا بالرجاء
لنكن أصدقاء
فعيون القضاء
جامدات الحدق
ترمق البشر المتعبين
في دروب الأسى والأنين

---

(٧٧) قصيدة لعنة الزمن ـــ قرارة الموجة ـــ الديون ٢ : ٢٤٧ .

تحت سوط الزمان النزق

.....

لنكن أصدقاء

نحن والحائرون

نحن والعزل المتعبون

والذين يقال لهم مجرمون

نحن والأشقياء

نحن والشملون بخمر الرجاء

والذين ينامون في القفر تحت السماء

نحن والتائهون بلا مأوى

نحن والصارخون بلا جدوي

نحن والأسرى

نحن والأمم الأخرى

في بحار الثلوج

في بلاد الزنوج

في الصحاري وفي كل أرض تضم البشر

كل أرض أصاخت لآلامنا

كل أرض تلقت توابيت أحلامنا

ووعت صرخات الضجر

من ضحايا القدر

.....

في بعيد الديار

ووراء البحار

في الصحاري وفي القطب ، في المدن الآمنة

في القرى الساكنة

أصدقاء بشر

أصدقـــاء ينـــادون أيـــن المفـــــر ؟(٧٨)

إن الواقع الإنساني إذن في خضوعه للقدر وارتباطه بالشقاء نتيجة الوجود (الأرضى) مفعم بالأسى والحزن والظلام ، بعيد عن الإشراق والسعادة ، ولكن الإنسان لا يستكين في قيود القدر ويحاول الصراع في سبيل الخلاص والتحرر ، تقول نازك :

ذاك شأن الإنسان يا أيها الصيـاد يا شاكيـا ظلام الرزايـــا
في صراع مع العناصر لا يهدأ حتـى يأوى لوادى المنايـا(٧٩)

بل نراها حين تتوجه إلى الرهبان المنقطعين عن المجتمع في قصيدتها (مأساة الحياة) تطلب إليهم أن يعودوا لمصارعة الزمان ، فإن الصراع جزء من قصة الوجود الإنساني في الكون :

آه عـــودوا إلى مصارعة الدهر وعيشوا كما تشـــاء الحيـاة(٨٠)

ونراها في قصيدة (خمس أغان للألم) تثير فكرة صراع الانسان في سبيل الغلبة والاستعلاء على آلامه بأية وسيلة يستطيعها ، تقول :

أليس في إمكانننـــا أن نغـــلب الألم ؟
نرجئـــه إلى صبـــاح قادم أو أمسيـــه
نشغلـــه ، نقنعـــه بلعبـــة ، بأغنيـــه
بقصة قديمة منسيّـــة النغـــــــم ؟(٨١)

كذلك تصور صراع الانسان مع القدر والواقع المر الذي يعيش فيه فتقول :

أبـدا نحن في كفـاح مع الأقـدار والحادثـــات تُبْلى وتُفْنـــى
يتحـدّى أحلامنـا الواقـع المـــــر ويـقسو زماننـا المتجنـــــى(٨٢)

---

(٧٨) قصيدة شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٧٩) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٨٢ .

(٨٠) نفسه ١ : ٨٥ .

(٨١) ديوان شجرة القمر ــ الديوان ٢ : ٤٥٧ .

(٨٢) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٨٣ .

ويحس الإنسان في شقائه الأزلي على الأرض غربة نفسية هائلة ، وكأن هذه الأرض التي هبط إليها ليست مقرّه . وهذه الغربة في الحقيقة ليست مكانية ، بل هي ــ كما ذكرت ــ غربة نفسية إذ يحس الإنسان صدمة الواقع الذي انتهى إليه ، ويشتد إحساس الشعراء بهذه الصدمة ومحنة الاغتراب أكثر من غيرهم ، تقول نازك :

أيها الشاعـــر السجين كفانـــا غربة في حياتنا ووجومـــا(٨٣)

وتقول أيضا :

والفؤاد الرقيق يصدمه الإحساس بالواقع الغريب الجديد(٨٤)

وتصور ثقل الواقع على النفس الإنسانية الشاعرة فتقول في استعطاف :

أيها الواقـــع الثقيـــل حنانـــيك أهذى عقبى المنى والحنين ؟(٨٥)

ولكن فكرة الصراع الإنساني في شعر نازك حائلة اللون ، لا تكاد تُرى ، والإنسان في شعرها يسارع بالهروب من مواجهة الواقع إلى عالم المثال ، اليوتوبيا :

فحياة الخيال أجمل من واقـــع حبّ ملفّـــع بالرمـــاد(٨٦)

وهي تعبر عن هذا الإنسان الهارب فتقول :

قـــد سئمـــت الواقـــع المـــر الممـــلا
ولقـــد عدت خيـــالا مضمحـــلا
فاتركينـــي بخيـــالي أتسلى
آه كاد اليـــأس يعـــروني لولا

---

(٨٣) نفسه ١ : ١٢٦ .

(٨٤) قصيدة أغنية للإنسان (١) ــ الديوان ١ : ٢٥٢ .

(٨٥) نفسه ١ : ٢٥٨ .

(٨٦) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٣٦ .

أننـــي لذت بأحـــلام السمـــــاء
وتخيّـــرت خيـــــال الشعـــــراء(٨٧)

ولا بأس عندها بالحياة إذا جمّلت واقعها المرير بالخيال :

أحب الحيـاة بقلبـــي العميـــق وأمـــزج واقعهـــا بالخيـــــال(٨٨)

وتتفق نازك في هذا الموقف مع بعض علماء النفس الذين يرون أننا لا نستطيع أن نعيش على الحقيقة ، وأنه لكي نتمكن من الحياة نحتاج إلى أوهام .(٨٩)

وتبني نازك للإنسان عالم الهروب في الخيال بهذه التمنيات التي تعانق الطبيعة أحيانا لطهرها و بعدها عن خبائث الإنسان ، كما نرى في قولها :

آه لو كان لي هنـــالك كـــــوخ شاعـري بين المروج الحزينـــة
في سكون القرى ووحشتها أقضـــى حياتي لافي ضجيج المدينـة(٩٠)

وفي قولها :

آه لو عشت في الجبال البعيـدات أسوق الأغنـام كل صبـــــاح
وأغنى الصفصاف والسرو أنغامي وأصغـــي إلى صفير الريـــاح(٩١)

بل تمنت أن ترود جبال القمر قبل أن ينجح العلماء في تحقيق هذا الحلم :

سنحلم أنا صعدنا نرود جبال القمـر
ونمرح في عزلـة اللانهايـة والـــلابشر
بعيدا بعيدا إلى حيث لا تستطيع الذكر
إلينا الوصول فنحن وراء امتداد الفكر(٩٢)

---

(٨٧) قصيدة الخيال والواقع ــ عاشقة الليل ــ الديوان ١ : ٥٩٩ .

(٨٨) قصيدة تهم ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ١٨١ .

(٨٩) عقدة أوديب في الأسطورة وعلم النفس Oedipus: Myth and complex باتريك ملاهي Patrick Mullahy ــ نشر مكتبة المعارف ــ بيروت . ١٩٦٢ م : ٢٣٩ .

(٩٠) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٥١ .

(٩١) نفسه ١ : ١٥٠ .

(٩٢) قصيدة دعوة إلى الأحلام ــ قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٢٣٥ .

وتعانق أمنياتها الخيالية الطفولة في أحيان أخرى ، بكل براءتها وعفويتها ، كما في قولها :

وتمـر الساعات بي وأنـا أبني خفايا مدينـة الأحـلام
أي يوتوبيا فقدت وعز الآن إدراكهـا على أيامـي
تلك يوتوبيا الطفولة لو ترجع لو لم تكن خيال منام(٩٣)

وإنسان نازك الملائكة لا يكاد ينتهي من حلمه حتى يبدأ حلما جديدا :

وأحلم أحلم لا أستفيـق إلا لأحلـم حلمـا جديـدا(٩٤)

وما ذاك إلا لرغبته المستمرة في الهروب من مواجهة الواقع المر الذي يفرض عليه الألم والأسر :

هنـالك حيث تذوب القيـود وينطلـق الفكـر من أسره
وحيث تنـام عيـون الحيـاة هنـالك تمتـد يوتوبيـا(٩٥)

وهذا العالم المثالي الذي تتخيله نازك يكاد يكون خاليا من البشر ، أو ينبغي أن يكون كذلك ، مادام الشر والإنسان قرينين متلازمين ، تقول :

وشيدى يوتوبيا في الجبال
يوتوبيا من شجرات القمم
ومن خرير المياه
يوتوبيا من نغم
نابضة بالحياة
.....
وشيدي يوتوبيا من قلوب
من كل قلب لم تطأه الحقود
ولم تدنسه أكف الركود

---

(٩٣) قصيدة أغنية للإنسان (١) ـ الديوان ٢ : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(٩٤) قصيدة يوتوبيا الضائعة ـ شظايا ورماد ـ الديوان ٢ : ٤٦ .
(٩٥) نفسه ٢ : ٣٩ .

من كل قلب شاعري عميق
لم يتمرغ بخطايا الوجود(٩٦)

ويستحيل أن يتلاقى عالم النقاء والطهر ، عالم القمم والنغم مع أحقاد الإنسان وشروره . ولا بأس في أن يهرب الإنسان من الحقيقة ، أو من الواقع ، ويعتصم بالخيال ، وما الله الذي تعشقه نازك إلا الخيال الذي تلوذ به ، والشمس رمز للحقيقة ، ولهذا تثور عليها قائلة :

يا من تمزق كل حلـــــم مشرق للحالمين وكل طيف ساحـــر
يا من تهدّم ما يشيـدّه الدجـــى والصمت في أعماق قلب الشاعر(٩٧)

ـ ٥ ـ

الإنسان بين الجهل والسقوط :

طبيعة خلق الإنسان من جسد وروح جزء من الثنائية التي يقوم عليها بناء الكون في جوانبه المادية والمعنوية على السواء ، والصراع الداخلي في الإنسان صراع طبيعي بين عالم المحسوسات وعالم المعقولات ، ويستحيل أن تكتسب الحياة الإنسانية معنى إلا بمقدار ما يرتفع العقل فوق عالم الحس ويتصل بعالم المثل ولكن المشكلة الكبرى أن العقل الإنساني قاصر عن إدراك كثير من حقائق الوجود ، وهذا سر من أسرار شقائه الذي صورته نازك في شعرها أصدق تصوير . وهذا التصور في العقل الإنساني يجعله مترددا بين الشك واليقين ، لا من ناحية قضية الخلق والخالق فحسب ، بل تجاه كل ما يعانيه الإنسان من حقائق الوجود . وليس (الإيمان) المطلق دواء سحريا يشفى هذه الحالة الإنسانية بحيث تقول نازك :

فلنلذ بالإيمان فهو ختام اليأس والدمع والشقاء العاتي (٩٨)

ولهذا اكتسب الإنسان هذه النزعة التي تسميها (النزعة اللّاأدرية) أو حالة

---

(٩٦) قصيدة يوتوبيا في الجبال ـــ شظايا ورماد ـــ الديوان ٢ : ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٩٧) قصيدة ثورة على الشمس ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٤٩٠ .
(٩٨) قصيدة مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٢٣٦ .

التردد بين الجهل والمعرفة ، وبين الشك واليقين ، في محاولة الوصولة إلى كنه الأشياء .

وقد حاول الفلاسفة الأقدمون أن يبحثوا عن معاني حوادث الوجود ، فكان لا بد لهم أن يتوقفوا طويلا عند كل أمّر يتصل بالإنسان ، ليستشفوا العلاقة بين الحوادث والغاية الأساسية للوجود . فكل شيء له معنى ، ولكن ليس في ذاته ، أو من أجل ذاته ، بل من أجل الحياة الإنسانية ، ومن أجل تحقيق الغاية الإلهية التي رسمها الله القدير للكون . وقد عبر القديس أوغسطينس عن روح القرون الوسطى إزاء أسرار الكون حين كان يهتف من أعماق نفسه الباحثة عن الله ــ وهو رمز لحقيقة الكون ــ فيقول : لقد سألت الأرض فأجابتني (أنا لست هو) ، وردد كل ما فيها هذا الجواب ، وسألت البحر والأعماق والكائنات الزاحفة فأجابت (لسنا إلهك ، ابحث عنه في العلاء) وسألت الهواء المتحرك فأجاب الهواء ، ورددت جميع الكائنات التي تعيش فيه (أنا لست الله) ، ثم سألت السموات والشمس والقمر والنجوم فقالت (لسنا الله الذي تبحث عنه) ، وعندها أجبت جميع الأشياء التي أبصرتها بأم عيني : لقد قلت عن إلهي إنك لست هو ، ألا تخبرنني شيئا عنه . فهتفت كلها بصوت عال : لقد خلقنا .(٩٩)

فالإنسان إذن بعقله المحدود قاصر عن معرفة أسرار الكون ورموزه ، ولهذا يقع فريسة الجهل أو الحالة اللا أدرية . ولا شك في أن ايليا أبا ماضي قد استفاد من محاورات القديس أوغسطينس في قصيدته (الطلاسم) ، كما استفادت نازك من أبي ماضي في (مأساة الحياة) بحثا عن السعادة الإنسانية ، أو المعرفة ، أو اليقين ، أو (سر الدنيا ولغز الدهور) ، فلم تصل قط إلى الراحة والاطمئنان ، بل ظل يردد الإنسان الذي تصوره (لست أدرى) :

---

(٩٩) انظر : تكوين العقل الحديث : ٧٤ .

ـــ هكذا جئت للحياة وما أدري إلى أين سوف تمضي الحيـــاة[١٠٠]
ـــ لست أدري ما غايتي في مسيري آه لو ينـــجلي لعينـــــيّ سرُّ[١٠١]
ـــ أي شيـيء هذا الـفضاء ومـــا سر دجـــاه هل خلفـــــه من حدود[١٠٢]
ـــ نحن نحيـا الحيـــاة في عالم ليس يدري سره فهو غيهب مجهول[١٠٣]
ـــ عبثـــا تسألين لن يكشف السر ولـــن تنعمـــــي بفك القيـــــود[١٠٤]
ـــ لست أدري شيئـا أنـا اليـأس يا أرض وأنت أبتسامتـــي ودموعـــي[١٠٥]
ـــ كل شيء يلـوح لي عدمـا مرا ولغـــزا مكفنـــا بالشكـــاة[١٠٦]
ـــ والـــــذات تسأل من أنـــــا
أنا مثلها حيرى أحـدق في ظلام
لا شيء يمنحنـــــــي السلام[١٠٧]
ـــ أبـدا تنظريـن للأفـق المجهـــول حيرى فهـل تجلّى الخفـــــيّ
أبـدا تسألين والقـدر الساخـــر صمت مستغلـــق أبـــــدي[١٠٨]
ـــ ماذا وراء الحيـــــــــاة ماذا أي غمـــــــــوض وأي سر
وفيم جئنـــا وكيـــــف نمضي يا زورقي ، بل لأي بحر
.....
أســـــرى كما ترسم المقاديـــــر لي إلى حيـــــث لســـــت أدري[١٠٩]

---

(١٠٠) قصيدة مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٢٨ .
(١٠١) نفسه ١ : ٢٩ وهو نفسه في أغنية للإنسان (٢) ١ : ٣٦٣ .
(١٠٢) نفسه ١ : ٦٤ .
(١٠٣) نفسه ١ : ٦٣ .
(١٠٤) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٥٥ .
(١٠٥) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ١٥٤ .
(١٠٦) أغنية للإنسان ـــ (١) ـــ الديوان ١ : ٢٤٦ .
(١٠٧) قصيدة أنا ـــ شظايا ورماد ـــ الديوان ٢ : ١١٧ .
(١٠٨) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٥٦ .
(١٠٩) قصيدة في وادي الحياة ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٥٥٢ .

ويقنع الإنسان في النهاية بالجهل طلبا للراحة من عناء الصراع في سبيل الوصول إلى الحقيقة :

أسفا يا فتاة لن تفهمي الأيام فلتقنعي بأن تجهليها(١١٠)

وليمعن في الهرب من الواقع لائذا بالخيال والجهل :

جهل الحقائق في الحياة فلم يطق عن زيفها هربا وعاش مهوّما(١١١)

إن الشقاء الإنساني في الأرض الذي تلح نازك على تصويره له مبرراته من واقع وجود الإنسان ، من حيث سقوطه أو هبوطه إلى الأرض بعد خطيئته الأولى واتباعه الشيطان أو الشر ، ووقوعه أسيرا في يد الأقدار تحركه أنّى شاءت ، وقصور عقله عن معرفة كثير من حقائق الكون ، وعجزه عن تحقيق ما يريده لنفسه ، وهذا العجز ، أو ما يمكن أن نطلق عليه النزعة (اللّيسيّة) لتضاف إلى النزعة (اللاأدرية) تصوره نازك تصوراً قويا أخاذا في مواطن كثيرة . وقد تمثلت لي هذه النزعة (اللّيْسيّة) من استخدامها المتكرر لأداة النفي (ليس بصورة تدعو للتأمل عند تحليل البناء الأسلوبي لشعر نازك ، وقد استخدمتها في قصيدتها (مأساة الحياة) على سبيل المثال خمسا وسبعين مرة ، ولو أننا أضفنا إليها الأبيات التي استخدمت فيها أدوات النفي الأخرى ، والأبيات التي تصور عجز الإنسان دون استخدام أدوات نفي ، لأصبحت لدينا صورة متكاملة لعجز الإنسان وقصوره عن إدراك معظم حقائق الوجود . إن هذه النزعة (الليسية) في معظمها تسلب الحياة جمالها ، ولا تبقى منها غير صور شائهة تدل على القبح والتلاشي والانهاء ، أو تسلب الإنسان المعرفة والقدرة ، كما في قولها :

ـــ ليس منا من يستطيع فكاكا ليس منا غير الأسير الذليل(١١٢)

ـــ ليس غير الأوهام تسخر مني ليس إلا تمزق واضطراب(١١٣)

---

(١١٠) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٥٦ .

(١١١) قصيدة إلى عيني الحزينتين ـــ الديوان ١ : ٥٦٢ ـــ عاشقة الليل .

(١١٢) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٥٧ .

(١١٣) نفسه ١ : ٢٦ .

ـــ ليس يحيـــا فيها ســـوى الآثم الجبـــار يا رحمتـــاه للضعفـــاء(١١٤)
ـــ ليس من سحرهـــا سوى سود أحجـــار تثير الدمـــوع والأشجانـــا(١١٥)
ـــ ليس غير الموتى عظامـــا وأشـــلاء وغير اكتآبـــة وصراخ(١١٦)
ـــ ليس إلا دنيـــا من الجوع والفقـــر عليها يعـــذّب الأبريـــاء(١١٧)

أما الأبيات التي تنفي قدرة الإنسان وتثبت عجزه وإن لم تستخدم أداة نفي فهي كثيرة في شعر نازك ، كما في قولها :

ـــ كلمـا حقـق الزمـان لقلبـي حلمـا صورت حيـاتي سواه(١١٨)
ـــ أريـد وأجهـل ماذا أريـد أريـد وعاطفتـي لا تريـد(١١٩)
ـــ ترفعنـا الأحـلام فوق السّهـا وتهدم الأيـام ما نأمـل(١٢٠)

وهذا العجز الإنساني عن فهم حقائق الكون يتفاعل مع الشر الذي تولّد في الإنسان منذ خضع لغواية الشيطان وسقط في الإثم ، فيطبع السلوك الإنساني في أحيان كثيرة بطابع الخسة والدناءة . وربما كان لرأي « فرويد » بأن نظرية الغرائز تلعب دورا جوهريا في حياة الإنسان نصيب كبير من الصحة ـــ في ضوء مفهوم الإنسان في عالم نازك الشعري . بل لقد افترض « فرويد » وجود غرض أساسي في عمليات الجهاز النفسي للإنسان ، وهو السعى وراء الإحساس باللذة . وفي سبيل السعى لإدراك هذا الإحساس يستهين الإنسان بكل ما وضعته الفلسفات من قيم لمعنى الإنسانية ، تحركه رغباته وشهوات نفسه التي تتغلب عليه ، وتقهر

---

(١١٤) نفسه ١ : ٣٩ .
(١١٥) نفسه ١ : ٤٣ .
(١١٦) نفسه ١ : ٤٥ .
(١١٧) نفسه ١ : ٤٧ .
(١١٨) نفسه ١ : ١٥٤ .
(١١٩) قصيدة صراع ـــ شظايا ورماد ـــ الديوان ٢ : ٥٣ .
(١٢٠) قصيدة المقبرة الغريقة ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٥٢٩ .

عقله عواطفه المشبوبة الجامحة ، وهذه هي الطبيعة المركوزة في الإنسان التي لا يستطيع تغييرها بما يخادع به من أساليب التزهد أو الترهيب ، ولهذا تقول نازك في وصف الدير ، حيث الرهبان المنقطعون للعبادة ، بعيدا عن الرغبات والشهوات الإنسانية :

إنــه الديــر فيــه ينتصــر المــوت وفـي قبــوه يعيــش الآه
في خفاياه ، في ممراتـه السود الحزينـات لا يعيش اللـه
مسكن الصمت والكآبة والجدب ومأوى الرغائب المدفونه
وصراع مع العواطف تضحى ناره أذرع الليـالي اللعينـه(١٢١)

فهذا العالم الصغير مجرد من الحياة ، لأنه مجرد من الرغبات الإنسانية الفطرية في الإنسان ، وليس هناك إنسان بلا غرائز تحركه ، وما دام ذلك ضد الطبيعة البشرية ، فليبق الدير إذن مثقلا برغائبه المشبوبة :

أثقلتــه رغــائب ثـرّة حرىّ تبــقت مــن أمســه المدفــون
واشتيــاق إلى الطفولــة والحبّ إلى ضمّــة وصدر حنــون(١٢٢)

ويقول « هوايتهد Whitehead » في ذلك : « عادات الطبيعة المادية وقوانينها الصارمة هي التي تعد المشهد لعذاب البشر ، ونجد أن الميلاد والموت ، والحر والبرد ، والجوع والفراق والمرض ، هي التي تقيد النساء والرجال »(١٢٣) .

ويرى « سوليفان Sullivan » بعد دراسة طويلة للسلوك البشري ـــ أن أعمال الإنسان وسلوكه إنما ينتظمها أمران : الأول إشباع الرغبات ، والثاني السعى للحصول على الطمأنينة .(١٢٤) وفي رأيى أن السعى للحصول على

---

(١٢١) أغنية للإنسان (١) ـــ الديوان ١ : ٣٤٨ .

(١٢٢) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٤١٦ .

(١٢٣) مغامرات الأفكار Adventures of Ideas ـــ الفريد نورث هوايتهد Alfred North Whitehead ـــ نشر دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ـــ بغداد ١٩٦٠ .

(١٢٤) Sullivan, H.S. : Conceptions of Modern Paychiatry. Psychiatry, 1940, 3: 117.

الطمأنينة إنما هو وسيلة لإشباع الرغبات أيضا ، ولكن هذا الإنسان الذي يعيش لرغباته ، والذي حوّله التقدم العلمي إلى إنسان آلى تصفه نازك بقولها :

على مكتبك البارد تنكبّ بـلا أحـلام
وتسرق روحـــك الأرقـــام(١٢٥)

وذلك لنضرب العواطف والأحاسيس السامية فيه وإغراقه في الماديات ، هذا الإنسان ترفضه نازك إيمانا منها بأن الإنسان ليس مسئولا عن وجوده الفردي فحسب ، بل هو في الحقيقة مسئول عن جميع الناس وكل البشر ، كما يقول « سارتر » . وهي بهذا المفهوم لا تبحث عن الإنسان المطلق أو المثالي الذي يسعى إليه الرومانسيون في خيالاتهم ، بل تحاول أن تتلس جذور الإنسان الممتدة في الواقع .

وحين يعرف « شلنج Schelling » الواقعية يقول بأنها هي التي تؤكد اللا أنا ، أي ما هو خارج الذات(١٢٦) . وهذا الجانب في الإنسان الذي تصوره نازك يدخل في هذا المفهوم ، فهي ترى في واقع مجتمعها الإنسان الجشع الذي يزهو بقوته وقدرته على الضعفاء ، يمتص دماءهم ليزداد مالا وهناء واطمئنانا ، ويشقى غيره في سبيل سعادته :

فكنـوز الغنّى يجمعهـا الفـلاح فـي عمـره الشقـي الكسـير
ذلك الكـادح المعـذب في القريـة بين المحراث والناعـور
كل صيف يسقى البساتين تحت الشمس والقصر هاجع وسنان
فهو يلقـى البـذور والمترف الهانىء يجنـى وتشهـد الأحـزان (١٢٧)

كذلك ترى الإنسان ذا النفس الوضيعة الذي لا يتورع عن إيذاء غيره من بني

---

(١٢٥) قصيدة مشغول في آذار ـــ شجرة القمر ـــ الديوان ٢ : ٤٧٠ .

(١٢٦) انظر : Lovejoy, Arthur O: The great chain of Being: 212

(١٢٧) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ١٥٩ .

البشر ، والذي يرفع شعارات العفة والعدالة ، ثم لا يترفع عن استعمار شعب بأكمله :

ونفوس وضيعة تسلب العابر حلمـــا أو رغبـــة أو قلبـــا
ونفوس أحط تؤمن بالعفـــة والعـــدل ثم تسرق شعبـــا(١٢٨)

وتعبر عن هذا المستعمر الذي يسرق حرية البشر وطعامهم بصورة تقريرية مباشرة في قولها :

ولصوص هنـــاك كثـــار كلهـــم جشع وخـــداع
أقبلـــوا من وراء البحـــار يسرقـــون طعـــام الجيـــاع(١٢٩)

ويشتد إحساسها بجشع الإنسان حين يتخلى عن الإحساس ، ويعيش على رغباته التي تتصادم مع حياة غيره من البشر في مجتمعه فتقول :

نحن العراة من الشعور ذوو الشفاه الباهته
الهاربون من الزمان إلى العدم
الجاهلون أسى الندم
نحن الذين نعيش في ترف القصور
ونظل ينقصنا الشعور(١٣٠)

ويميت الإنسان صوت الضمير ليمارس شروره في حرية ، وصوت الضمير هو الراقب الإلهي وصوت الشعور أيضا :

ذلك الـــراقب الإلهي في النـــفس لسان الهدى وصوت الشعور(١٣١)

وهي تعجب لأولئك الأشرار الذين ينجحون في خنق صوت الضمير كيف يعيشون في سلام مع أرواحهم :

كيف ينجوا الأشرار من شقوة الروح وسوط الضمير بالمرصاد(١٣٢)

---

(١٢٨) أغنية للإنسان (٢) ـ الديوان ١ : ٤٢٦ .
(١٢٩) قصيدة ثلاث أغنيات عربية ـ شجرة القمر ـ الديوان ٢ : ٤٩٢ .
(١٣٠) قصيدة إلى العام الجديد ـ قرارة الموجة ـ الديوان ٢ : ٢٥٠ .
(١٣١) أغنية للإنسان (٢) ـ الديوان ١ : ٤٢٤ .
(١٣٢) نفسه ١ : ٤٤٥ .

ونراها تستشعر بشاعة الإنسان في صورة تلك الطفلة التي توسدت أرض الشارع في الشقاء لتنام ، إنها رمز لسقوط الإنسان :

أيـــــــام طفـــــــولتها مرت في الأحـــــــزان
تشريـــــــد ، جوع ، أعـــــــوام من حرمـــــــان
إحـــــــدى عشرة كانت حزنـــــــا لا ينطفـــــــيء
والطفلـــــــــــة جوع أزلي ، تعب ، ظمـــــــــأ
ولمن تشكـــــــو ؟ لا أحـــــــد ينصت أو يُعْنَـــــي
البشريـــــــة لفـــــــظ لا يسكنـــــــه معنـــــــى
والنـــــــاس لفـــــــظ لا يسكنـــــــه معنـــــــى
والنـــــــاس قنـــــــاع مصطنـــــــع اللـــــــون كذوب
خلـــــــف وداعتـــــــه اختبـــــــأ الحقـــــــد المشبـــــــوب
والمجتمـــــــع الـــــــبشري صريـــــــع رؤى وكـــــــؤوس
والـــــــرحمة تبقـــــــى لفظـــــــا يقـــــــرأ في القامـــــــوس(١٣٣)

وهذه المرأة الفقيرة البائسة التي ماتت في زقاق بغدادي كما يموت الملايين مثلها من البشر الذين نسميهم سواد الناس ، يولدون في صمت ، ويموتون في صمت ، لا تحرك حياتهم أو موتهم ضمير إنسان يحس الرحمة أو العطف :

ذهـــــبت ولم يشحب لها خد ولم ترجـــــف شفـــــاه
لم تسمـــــــع الأبـــــواب قصة موتها تروى وتـــــــروى
لم ترتفـــع أستـــــار نافـــــذة تسيـــــل أسى وشجـــــوا
لتتابـــــع التابـــــوت بالتحديـــــق حتـــــــى لا تراه
إلا بقيـــــة هيكـــــل في الـــــدرب ترعشه الذُكـــــر
نبـــــأ تعثر في الـــــدروب فلـــــم يجد مأوى صداه
فاوى إلى النسيـــــــــــان في بعض الحفـــــــــــر
يرثى كآبتـــــــــــــــه القمـــــــــــــــر

---

(١٣٣) قصيدة النائمة في الشارع ــ قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٢٧٢ .

والليـــــل أسلـــــم نفسه دون اهتمام للصبـــــاح
وأتى الضيـــاء بصوت بائعـــة الحلـــيب وبالصيـــام
بمواء قط جائـــع لم تبـــق منـــه سوى عظـــام
بمشاجـــرات البائـــعين وبـــالمرارة والكفـــاح
بتـــراشق الصبيـــان بالأحجـــار في عرض الطريـــق
بمسارب الماء الملـــوث في الأزقـــة ، بالريـــاح
تلهـــو بأبـــواب السطـــوح بلا رفيـــق
في شبـــــه نسيـــــان عميـــــق(١٣٤)

وقصيدتها (الأرض المحجبة) ليست يوتوبيا الضائعة ، ولا هي أرض جبران المحجوبة ، بل هي أرض الواقع التي صورها عباقرة الكلام بأنها الجنة التي أُخرج منها الإنسان ، انتقلت إلى الأرض ، ثم لم يلبث شهداء الواقع أن رأوا فيها أبشع ما في الإنسان من أنانية واستغلال لأخية الإنسان :

صوروهـــا جنـــة سحريـــة من رحيـــق وورود شفقيـــه
وأراقـــوا في رباهـــا صورا من حنـان وتسابيـــح نقيـــه
ثم قالـــوا إن فيها بلسمـــا هيأتـــه لجراح البشريـــه
وأردناهـــا فلـــم نظفـــر بها ورجعنـا لأمانينـــا الشقيـــه
.....
حدثونـــا عن رخـــاء ناعـــم فوجدنـا دربنـا جوعـا وعريـا
وسمعنـــا عن نقـــاء وشذى فرأينـا حولنـا قبحاً وخزيـــا
ورتعنـــا في شقـــاء قاتـــل وكفانـا بؤسنـا شبعـا وريـــا
وعرينـــا وكسونـــا غيرنـــا وكسبنا القيد والدمع السخيا
.....
أيـــن تلك الأرض من حجبّهـــا نحن شدناها برنات الفؤوس
وأجعنـــا في الدجـــى أطفالنـــا لنغـذيها وجُدْنـــا بالنفـــوس

---

(١٣٤) قصيدة مرثية امرأة لا قيمة لها ــ قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

وزرعنـــا وحصدنـــا عمرنـــــا وجنينا ظلمـة الدهـر العبـوس
وسقينـــا أرضهـــا من دمنـــــا ومنحناهـا لأربـاب الكـؤوس(١٣٥)

وتتحول صور الآدميين في سقوطهم وبشاعة سلوكهم إلى عبيد وموتى وأسرى وتماثيل ، بل تمسخ قردة وضباعا شرسة تهز وجدان الشاعرة فتقول :

لا أريـد العـيش في وادي العبيـد بين أمـوات وإن لم يدفنـــوا
جثث ترسف في أسر القيـــــود وتماثيـــل اجتـــوتها الأعين
آدميـــون ولكـــن كالقـــــرود وضبـاع شرسة لا تؤمـــن(١٣٦)

وتصور السلوك الإنساني في بشاعة سقوطه بطرق متعددة ، حين يتوسل إلى إدراك غاياته الدنيئة بالرياء أحيانا ، والكبرياء المصطنع أحيانا أخرى :

وتظـل الحيـاة تخلـق من وجهـي قنـاعـا صلـــدا يفيـــض ريـــاء
جامـــدا باردا أصمـــا ويخفـــى بعض شيء سميته كبريـــاء(١٣٧)

وحين ترى زيف بريق الأعين وابتسامات الشفاه ، واتخاذ الزهادة قناعا يستر الخطيئة والشر :

مَجَجْتُ الزوايا التي تلتوي
وراء النفوس
وراء بريق العيون
وأبغضت حتى السكون
وتلك المعاني التي تنطوي
عليها الكؤوس
معاني الصدى والجنون
معاني الخطايا التي تبرق
بريق النجوم
.....

---

(١٣٥) قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(١٣٦) قصيدة في وادي العبيد ــ عاشقة الليل ــ الديوان ١ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ .
(١٣٧) قصيدة كبرياء ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ٣٦ .

كرهت الجفون التي تأسر
وخلف سماء ابتساماتها
لهيب الحقود
كرهت الأكف التي تعصر
وخلف حرارة رعشاتها
جمود كذل الحياه
على جثة تحت بعض اللحود
تعيث بها دودة في برود
كرهت ارتعاش الشفاه
برجع الصلاه
ففي كل لفظ خطيئه
تجيش بها رغبات دنيئه
وعفت طموحي وبحثي الطويل
عن الخير والحب والمثل العاليه
وحقّرت سعيي إلى عالم مستحيل(١٣٨)

لقد تحولت عيون البشر في سقوطهم وتمرغهم في الشر إلى محاجر جامدة أو إلى صفائح من زجاج ، وخلف جمال لونها الذي يضاهي لون السماء تختفي أدغال كثيفة من ظلمات الشر :

ووجدت أجفانا وليس لها بصر
وعرفت أهدابا شددن إلى حجر
وخيرت أقباء ملفعة بأستار الظنون
عمياء عن غير الشرور وإن تكن تدعى عيون
وعرفت آلافا وأعينهم صفائح من زجاج
زرقاء في لون السماء وخلف زرقتها دياج(١٣٩)

---

(١٣٨) قصيدة أغنية الهاوية ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٣٩) قصيدة خرافات ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ٨٨ .

الإنسان والفناء :

إن صورة الإنسان في شعر نازك الملائكة لا تكتمل دون الحديث عن تلاشي الإنسان وفنائه ، وهذا الفناء نتيجة محتومة لخطيئتة الأولى التي أخرجته من جنة الخلد ، وعرضته لتجربة الحياة على الأرض ، متحملا سقطته وشرور نفسه التي أطاعت الشيطان في إغوائه له . والموت مع بشاعته ليس عقوبة ، وإن كانت نازك تقول : « الموت يلوح لي مأساة الحياة الكبرى ، وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى صباي إلى سن متأخرة »(١٤٠) . وهي ترى أن بداية الإنسان في الأرض مثلما كانت مأساة فإن نهايته مأساة أيضا :

ما أفظـــــع المبـــــدأ والمنتهى ما أعمق الحزن الذي نحمـل(١٤١)

ولكنها تؤمن في الوقت نفسه بقول « شوبنهاور » : « وإن أعظم نعيم للناس جميعا هو الموت » . وربما وجدت في الموت أمنا لا تجده في الحياة :

عدت أخشى الحيـاة أفـرق منها وأراهـا دعابـة لا تطـاق(١٤٢)

وليس هناك تناقض بين النظرتين ، فليكن الموت مأساة للإنسان لأنه أمر مفروض عليه ، خارج عن إرادته ، ولكنه في الوقت ذاته ، ومع ما ذهبت إليه الشاعرة من شقاء الإنسان في حياته ، سبيل للراحة من عناء الحياة ورحلتها الشاقة المريرة ، التي تزيد مرارتها على حلاوتها بما يشير إلى فقدان التعادل والتوازن بين خيرها وشرها .

ويتميز الموت على الحياة بأنه الخلد :

يـا لأسطـورة الخلـود فمـا الخلد غـير القبـور والآلام (١٤٣)

كما أنه أول خطيئة يرتكبها الإنسان في الأرض حينما قتل قابيل أخاه هابيل ،

---

(١٤٠) الديوان ١ : ١ .

(١٤١) قصيدة المقبرة الغريقة ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٥٢٩ .

(١٤٢) أغنية للإنسان (١) ـــ الديوان ١ : ٢٦٠ .

(١٤٣) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٧١ .

وهذه الخطيئة :

إنها لعنة السماء على العالم مسدولة الرؤى مكفهره(١٤٤)

وسيظل شبحها مخيما على الحياة البشرية ، ونهجا تسير على خطاه ذرية آدم في خلال العصور :

ـــ إن يكن من فقدت أول مقتول فلأيا سيقتل العشرات(١٤٥)

ـــ إنها اللعنة القديمة أبقت في عروق الابناء نبض الجريمه(١٤٧)

وتصور نازك في صدق وقع الموت العنيف على الإنسان :

صوت ماتت رن في كل مكان
هذه المطرقة الجوفاء في سمع الزمان
صوت ماتت خانق كالأفعوان
كل حرف عصب يلهث في صدرك رعبا
ورؤى مشنقة حمراء لا تملك قلبا
وتجنى مخلب مختلج ينهش نهشا
وصدى صوت جحيمي أجشا
هذه المطرقة الجوفاء ماتت(١٤٨)

والموت علامة الضعف البشري : شهد الموت بضعفي البشري(١٤٩)

ونجد ذكر الموت في عالم نازك الشعري كثير التردد ، لا يغيب حتى في عناوين قصائدها : عيون الأموات ، أنشودة الأموات ، بين فكي الموت ، المقبرة

---

(١٤٤) نفسه ١ : ٤٢ .

(١٤٥) نفسه ١ : ٤١ .

(١٤٦) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٧٥ .

(١٤٧) أغنية للإنسان (١) ـــ الديوان ١ : ٢٧٠ .

(١٤٨) قصيدة الخيط المشدود في شجرة السرو ـــ شظايا ورماد ـــ الديوان ٢ : ١٩٤ .

(١٤٩) قصيدة في وادي العيد ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٤٨٢ .

الغريقة ، قلب ميت ، قبر يتفجر . وهي لا تفتر عنه في مراثيها لأعزاء تعرفهم ، أو لبشر مجهولين ، أو في مناسبات يسود فيها الموت : ثلاث مراث لأمي ، إلى عمتى الراحلة ، مرثية غريق ، الشهيد ، مرثية امرأة لا قيمة لها ، مرثية للإنسان ، مرثية في مقبرة ريفية ، مرثية يوم تافه ، جنازة المرح ، الكوليرا .

وتقول نازك إن للموت سجلا ممتداً عبر الزمن ، فقد نشأ مع الخلق في الأرض ، وبقي بعد أن أهلك أجيالا وأمما :

جاء من قبل أن تجيئي إلى الدنيا ملايين ثم زالوا وبادوا(١٥٠)

وهو يدعو إلى التشاؤم الكثيف ، فما جدوى الحياة إذن إذا كان مصير الإنسان محتوما إلى الفناء :

كل ما في الحياة يُنهى إلى القبر فما مجدها وما جدواها(١٥١)

وهي ترى معاني الفناء ماثلة في كل ما تراه :

ومعاني الفناء ألمحها حولي في كل ما تراه عيوني(١٥٢)

ويحس الإنسان أن عليه دورا يؤديه فإذا بلغ نهايته انتظر إسدال الستار :

ودوى الأجراس ينذرنا أنا انتهينا من دورنا المحموم(١٥٣)

والإنسان مدفوع إلى نهايته برغبة باطنية ملحة ، برغم كل ما يبدو من تشبثه أحيانا بالحياة :

إن شيئا في عمق أنفسنا يجذبنا للمات شيئا مكينا(١٥٤)

وربما دعا ذلك كله الإنسان إلى التساؤل عن المصير بعد الموت :

أبدا أسأل الليالي عن الموت وماذا ترى يكون المصير(١٥٥)

---

(١٥٠) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢٣ .

(١٥١) ترجمة مرثية في مقبرة ريفية ــ عاشقة الليل ١ : ٦٧٤ .

(١٥٢) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢١١ .

(١٥٣) قصيدة أجراس سوداء ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ١٠٧ .

(١٥٤) نفسه ٢ : ١٠٨ .

(١٥٥) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢٦ .

وعن علاقة المبدأ بالمنتهى ، أو الحياة بالفناء ، وهنا نجد نازك تؤمن بدورة الحياة والفناء واتصالهما الوثيق في تاريخ البشرية ، تقول :

وغدا من دمى غذاؤك يا صفصاف ياتين أي ثأر رهيب
ذاك دأب الحياة تسلب ما تعطيه بخلا ، لا كان ما تعطيه (١٥٦)

وتقول كما قال أبو العلاء المعري من قبل :

وتمشي الأحياء فوق بقايانا وداسوا عظامنا ودمانا (١٥٧)

وتقول أيضا :

وغدا تدفعني الأرض سحابا للفضاء
ويذيب المطر الدفاق دمعي ودمائي
ما أنا إلا بقايا مطر ملء السماء
ترجع الريح إلى الأرض به ذات مساء (١٥٨)

ودورة الحياة والفناء هي في رأى الفلسفة التي تقوم عليها قصيدتها (يحكى أن حفارين) وهنا أختلف مع الصديق الدكتور عز الدين اسماعيل في تحليله لهذه القصيدة ورأيه بأن (الموت نتيجة غير منطقية بالنسبة للحياة ، لأنّ الحياة والعمل من أجل الحياة لا يمكن أن يستتبعا الموت ، وهذه هي المفارقة الحقيقية ، المفارقة الكبرى التي يقوم عليها الوجود . ولو لم تكن مفارقة ، وكان الموت نتيجة طبيعية للحياة ، لما نسى الحفاران أن يحفرا لنفسيهما قبرا ، وحفرا قبور الموتى مهنتهما)(١٥٩) .

فهناك وحدة بين الموت والحياة ، فالحياة تنبثق من الموت كما يظهر النبت الحي من البذرة الهامدة ، والموت ليس له وجود بغير الحياة . واذا عدنا

---

(١٥٦) أغنية للإنسان (٢) ــ الديوان ١ : ٣٧١ .
(١٥٧) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٩١ .
(١٥٨) قصيدة على وقع المطر ــ عاشقة الليل ــ الديوان ١ : ٥٩١ .
(١٥٩) الشعر العربي المعاصر ــ قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ــ نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٦٧ : ٣٦٠ ، ٣٦١ .

للقصيدة وجدنا أن بدايتها (الزمان يسير) للدلالة على هذه الدورة التي أشير إليها ، ثم نجد التلازم بين الموت والحياة في قول الحفارين :

نحن نبكي هنا
والزمان يسير
نحفر الأرض ، نبحث عما أضعنا هنا
والزمان يسير

واستمر الحفاران في عملهما الذي يجمع الموت والحياة في قرن واحد في كل الظروف ، فقد حفرا في الشتاء والخريف ، في التراب ، في الضباب ، وتمضي دورة الحياة والموت في القصيدة كلها ، حتى بعد أن ماتا ، فالشاعرة تقول :

والزمان يسير
ويجر رفاتهما في الرمال
ويرى الرجل الميت الحي يطوي الليال
شاردا مفردا
لم يعد يحتويه مكان
أو زمان
إنه قد أضاع الغدا
وتبقى له الأمس والميتان
واستمر يسير الزمان ...(١٦٠)

أما قصيدة (غسلا للعار) فنرى فيها الشاعرة تعطي شبح قايل بعدا اجتماعيا يقوم على السخرية المرة ، لا من قضية الدفاع عن العرض في عالمنا العربي حين تقع الفتاة في الإثم ، بل من التناقض الذي يبيح للرجل مالا يبيحه للمرأة ، فهو لا يتورع عن القتل (غسلا للعار) ويفخر بذلك ، ويحتفل به بالانكباب على ملذاته وقضاء شهوته :

ويعود الجلاد الوحشي ويلقى النـاس

---

(١٦٠) قصيدة يحكي أن حفارين ــ قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٣٢١ ــ ٣٢٦ .

العار ، ويمسح مديته ـ مزقنا العار
ورجعنا فضلاء ، بيض السمعة أحرار
يا رب الحانة أين الخمر وأين الكاس
ناد الغانية الكسلى العاطرة الأنفاس
أفدى عينيها بالقرآن وبالأقدار
امـــلأ كاساتك يا جـــزار
وعلى المقتولة غســـل العـــار (١٦١)

إن الإنسان في شعر نازك الملائكة ماثل ببدئه وانتهائه ، بخيره وشره ، بمثُله وانحطاطه ، بعقله وعاطفته وغرائزه ، بارتفاعه وسقوطه ، وهو ـــ كما رأينا ـــ ليس إنسانا مطلقا مجردا في كل حين ، وليس دائما إنسانا محددا ذا واقع مادي ، ليس هو الإنسان الذي تصنعه المذاهب الأدبية أو الاجتماعية المتصارعة على عينها ، ولكنه الإنسان الذي أحسته الشاعرة في نفسها بحيث لا نستطيع أن ننكره بدعوى غلبة الحزن والتشاؤم ، لأننا لا نستطيع أن ننكر أنفسنا كما نتمثل هذا الإنسان فيها ، ووظيفة الشاعر كما أدتها نازك بصدق هي التي عبر عنها « جوته » بقوله :

وعندمـــا يخرس الإنسان في بلائـــه
يمنحني الله قدرة التعبـير عـن شقائـه

---

(١٦١) ديوان قرارة الموجة ـــ الديوان ٢ : ٣٥٢ .

92.716
1266